قصة : طه حواس

العروسة

قطرات المطـــر تتســـاقط . الرياح سريعة باردة . الطريق موحل . الناس يسرعون الخطا . لا يلتفت أحدهم الى الآخر .. نظراتهم الى أسفل .. السماء معتمة . العربات فى الشـــارع ترش السائرين بالوحل. أزيز طائرات عابرة يملأ الميدان . أطفال يلعبون تحت المطر، تغوص أقدامهم فى الوحل . يتصارعون يضحكون يتقاذفون بحصـــوات يغمرها الطين ، يملأون الميدان صياحا وحركة.. وعلى جانب الطريق سيدتان . أحداهما ممتلئة ترتدى رداء أسود . أما الأخرى فكان رداؤها زاهى الألوان . كانتـا تسيران فى بطء ، تتفاديان المطر بالسير تحت مظلات الدكاكين التجارية . وبعد خطوات دخلنا أحد الحوانيت . وقفت

ذات الرداء الأسمر أمام البائع . جذبت زميلتها من يدها لتطمئن الى وجودها بجوارها . وقربت فمها ناحية اذنهـا وهمست . وعلى وجهها ملامح ابتسامة رقيقـة .

ـ أخبرينى يا نوال .. ماذا تريد فتاة فى سن الرابعة ؟ انا لا اريد أن ينقصها شىء .. اسمعى يا نوال سأشترى لها عروسة .. عروسة كبيرة .. هل البائع موجود يا نوال ؟ .

رد البائع على سؤالها بصوت خفيض .

ـ موجود يا هانم اى خدمة ؟ .

اتجهت ذات الرداء الأسمر نحـو البائع .

ـ ارنا العرائس .. اريدها جميلة وحياتك ..

ـ حاضر .

انصرف البـائع يحضر العـرائس واستمرت ذات الرداء الأسـمر تسأل نوال .

ـ الواجب أن أشترى لها الفساتين أولا . ما رأيك يا نوال ؟

آه .. يجب أن اشترى لها كل شىء . اليس كذلك ؟ .

ـ طبعا ياعزيزة .. طبعا ..

أقبل البائع يضع صناديق العرائس أمام الصديقتين .

ـ العرائس يا هانم ..

وارتفع صوت عزيزة .

ـ اختارى عروسة جميلة يا نوال .

وضع البائع الصناديق أمامهما .. فى صف طويل نزع عنها أغطيتها . بدت العرائس فى الصناديق . كالأطفـال الصغيرة التى ترقد فى المهـد . تنطق وجوهها ببهجة الحياة .. امتـدت يد نوال الى صندوق وأخرجت منـه عروسة .. وارتفع صوتها ..

ـ الله .. عروسة جميلة جـدا .. يا عزيزة .. تشبه الملاك مدت عزيزة ذراعيها أسلمتها نوال العروسـة وهى تقول ..

ـ احسن عروسة .

اخذت عزيزة العروسة . تحسستها بيديها .. ومرت بأصابعها على وجهها . ولمست خديها الناعمين فى رفق وأمالت راسها وعدلتها .. طربت لصوتها .

ـ ماما .. بابا .. ماما .. بابا ..

اثار الصوت فى نفسها أشياء خامدة . بعثت فيها نشوة جديدة . لها لذة الحلم الجميل .. فظلت تحرك العروسـة وتستمع الى صوتها . ثم رفعتها بين يديها الى صـدرها .. احتضنتها فى حنان . نظرت اليها نوال والى البـائع الذى كان ينظر الى صديقتها .

ـ ماذا ستشترين أيضا يا عزيزة ..

وقالت عزيزة وهى كالنائمة .

ـ نعم .. ماذا قلت ؟

ـ قلت ماذا ستشترين بعد العروسة ؟

ـ آه .. سأشترى كل شىء يلزم بنت فى سن الرابعة . الم أقل هذا من قبل ؟ انها تستحق كل شىء . انى سأجعلهـا أسعد بنت فى العـالم .. سأعملهـا الموسيقى . بعد دروسى فى المدرسة . بعد أن أترك الأطفال العفاريت سأتفرغ لها . سأشترى لها بيانو جديدا غـير الذى عندى وسألها البائع .

ـ ماذا تريدين بعد العروسة ؟ .

ـ بعد العروســـة .. آه .. أيوه يا نوال . ماذا تريد البنت أيضا غـير العروسة ؟

ـ الفساتين .

الفساتين صحيح .

ثم وجهت كلامها للبائع .

ـ هات لنا سبعة فساتين .

وقال البائع يردد الكلمة ..

ـ سبعة فساتين .. ؟

وأجابت عزيزة وهى تهز رأسها علامة التأكيد .

ـ نعم سبعة فساتين .. أنا أريدها ان تلبس كل يوم فستانا جديدا .. آه يانوال لو أمكن أن أذهب أنا وهى الى مكان بعيد .. بعيد عن.. الناس كل الناس .. أنا أريدها ألا تعرف أحـدا غيرى..أريد أن أكون لها أما . وأبا . وأختا . زميلة وصديقة. وكل الناس. وتوقفت لحظة عن الحديث . مرت بيدها على ظهـــرها .. وتحسست أقدامها الصغيرة الملساء ثم رفعت صوتها ..

ـ هات لها حذائين .. لا .. سبعة أحذية . لكل فستان حذاء . انصرف البائع يحضر الأحذية .. أخذت نوال تتفحص الفساتين .. بينما تصل الى أذنيها همسات عزيزة ..

ـ هم قالوا لى ان شـــاء الله طلبك سيقبل .. ولابد أنهم سيرسلوها .. أنا التى سأذهب الى هناك لأحضرها .. هذا أحسن أليس كذلك ؟ أنا أعتقـد هـــذا .. لأن قلبى دائما يقـــول لى الحقيقة .. وقلبى يقول لى الآن . انهم سيلبون طلبى . أنا عندى المال .. عندى الفلوس .. فلوس كثيرة .. وعنـدى عمارة .. عمـارة كبيرة أنت تعرفينها يا نوال .. سأكتب لها حقى فيها . كل ما أملك سأكتبه لها .. وعندما تكبر سأحدثها عن أشياء كثيرة . سأقول لها يا بنتى .. لقد أذانى أولاد خالتك . كثيرا ما وضعوا المقاعد والأشياء فى طريقى لأتعثر وأسقط على الأرض .. ليضحكوا منى .. لقد عانيت منهـــم الكثير .. والأطفال الصغار فى المدرسة .. سألونى كثيرا .. أليس لك أطفال يا أبله ؟

نريد أن نلعب معهم يا أبله ..

ما عدا هذه الأسئلة فأطفال المدرسة طيبون . أولاد حلال . فى الأيام التى كان يهملنى أولاد خالتـــك يا بنتى كانوا يتسابقون كل منهم يريد أن يأخذ بيدى عبر الشارع الى المدرسة أو البيت . ولكن سؤالهم عن أطفالى كان يزعجنى يا بنتى ..

وضعت العروسة الى صـــدرها . وربتت على كتفها . ثم اســـتمرت فى همسها ..

ـ ولكن بعد الآن لن يزعجنى هـــذا السؤال يا بنتى . وان شاء الله سيكون لك مســـتقبل رائع . سأبنيه لك من الآن . ولكن الخوف من خالتك فقـــد تقتلك . قد تضع لك السم .. أو تصلت عليـــك أولادها .. وأنا لا أراك . فلا تأخذى منها شيئا مطلقـــا .. ومالت العروسة فانطلق صوتها ..

ـ بابا .. ماما ..

ـ وارتفع صوت عزيزة .

ـ مالك يا روح ماما .. ؟؟

ووعت الى نفسها بعـد هزة من يد نوال .

ـ عزيزة .. مالك يا عزيزة ..

واجابتها عزيزة اجابة من يصحو من اغفاءة ..

ـ لا شيء يا نوال .. لا شيء لقد حلمت قليلا ..

أقبل البائع . وضع الأحذية أمـــام الصديقتين ..

ـ الأحذية يا هانم ..

ـ اختارى ما يناسب يا نوال .

نظر البائع الى نوال وقال ..

ـ كان من الأفضل أن تحضر الفتاة معكما لتأخذ الأحذية المناسبة .

التفتت نوال الى عزيزة وقالت ..

ـ ما رأيك يا نوال ؟ أعتقد أن هـذا كلام سليم . ننتظر الى أن تأتى البنت. ثم نحضرها معنـــا لتأخذ الأحـــذية المناسبة .

ضمت عزيزة العروسة الى صدرها.. وقالت ..

ـ لا عليك يا نوال .

ثم التفتت الى البائع .

ـ الا تعرف مقاس فى سن الرابعة ؟

ـ لا مؤاخذة يا هانم هى البنت فى مكان بعيد ؟

ـ لا أبدا .. وعلى كل حـــال ..لا تخشى على الأحذية . عندما تحضر

البنت . ويتبين غير صـــلاحيتها . أعاهدك أنى لن أردها وسأشـترى منك غيرها .. أنت لا تعرف يا بنى كم هـذه البنت غالية عندى .. انها عندى أغلى من كل شيء .. توكل على الله واحـزم الأشياء التى أخذناها .. أما العروسة فاتركهـــا معى كما هى . سأســـير فى الشارع وهى على ذراعى ..

ـ أمرك يا هانم . ربنا يخليها لك .. وتتربى فى عزك ..

لو كان كل واحـد يعز أولاده مثلك لملأت السعادة البيوت .

وقالت عزيزة فى حماس ..

ـ يجب أن يحسوا اننا أمهاتهم حقا .. أليس كذلك يا نوال ؟؟

آه يا نوال .. اننى أخشى عليها من خالتها وأولادها . انهم شـــياطين . أبالسة . لا يدرون ما يفعلون . لقـد عـــذبونى كثيرا .. لذلك لا أريدها أن تعرفهم ولا تتصل بهم .. انهم ربمـــا يقتلونها .. نعم يا نوال يقتلونها . لأنها ستشاركهم ثروتى بعد موتى .. يجب أن آخذها بعيدا عنهم .. وعن أولاد الشارع لأن أخلاقهم فاسدة لا تعجبنى.

سأذهب بها بعيدا عن الجميع .. لقد قدمت الطلب من مدة طويلة ، وكلما اذهب اليهم يقولون لى .. ان طلبك لم يبحث . لقد تعبت من الذهاب اليهـم يا نوال .. أرجوك أن تساعدينى فى هذه المسألة يا نوال .. اذهبى اليهم غـــدا وقولى لهم اننى اشتريت لها أشـــياء جميلة حلوة تتمناها كل فتاة . كل بنت تتمنى أن تكون لها مثل هـذه الأشياء يا سلام يا نوال .. أنت لا تتخيلين كم سأكون سعيدة بهذه البنت . ان العالم سيصبح ملكى .. سأملكه عندما أملكها. سأبعدها عن كل ســـوء .. سأجعلها تعيش فى جنة يا نوال لأنهـــا ستكون جنتى .. نوال .. لمـــاذا لا تتكلمين يا نوال .. أنا أعرف لقـد تعبتك معى كثيرا .. ولكن المسألة ستنتهى قريبا.. سيرسلونها بعد أن تذهبى اليهم .. أنا متأكدة يا نوال .. وسوف تأتين لزيارتنا أنا وهى .. بنتى يا نوال وستدركين مدى اعزازى لها ..

جففت نوال دمعات جالت فى عينيها ونظـــرت الى عزيزة . وقـالت بنبرة مخنوقة ..

ـ ان شاء الله .. هذا أمر لا يحتاج الى توصية يا عزيزة ..

وسرحت بذهنها تسائل نفسها .. وهى تنظر الى عزيزة تحتضن العروسة..

ـ ماذا لو عرفت أن ادارة الملجـــأ لا يمكن أن تسلم بنتا لامرأة مثلها عمياء فى حاجة الى رعاية . وكيف أقول لهـــا هذه الحقيقة ؟

انها الآن فى حلم .. ويجب أن تعيش فيه أطول مدة ممكنة .

أنا لا أستطيع أن أوقظها منـــه .. ليوقظها غيرى .. أما أنا فسأقول لها دائما .. ان طلبها لم يبحث بعد .. ثم رفعت صوتها تخاطبها . عندما وصلنا الى باب الحانوت ..

ـ ان شـــاء الله يا عزيزة ربنـــا يساعدك ..

خرجنا من الحانوت .. نظرت نوال الى الميدان .. المطـر يتساقط عربات الأجرة تتسابق .. الأطفـال يجرون . يتشاجرون .. يتقاذفون بالحجارة .. عزيزة تحمل العروســـة بين ذراعيها

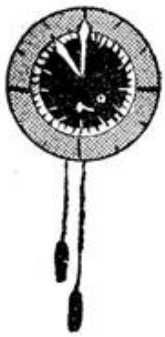

تضمها الى صدرها . كما تضـــم الأم رضيعها الى ثدييها . سارت مع نوال خطوات فى الطريق .. صرخات الأطفال تصل الى آذانهمـا .. اقترب منهمـا طفل . نظر الى العروسة وهو يجرى .. رماه زميله بحصاة أصابت ذراع عزيزة. سقطت العروســة فى الطين .. انحنت عزيزة لتتحسسها . مرت عربة أجرة فى سرعة .. تطاير رذاذ الوحل . فأصاب وجهها ويديها .

أمسكت بها نوال من كتفها جذبتهـا بعيدا عن الطريق .. مرت عربة أخرى من خلفهما . داست عجلاتها العروسة الملقاة فى الوحل . ارتفع صوت عزيزة..

ـ العروسة يا نوال العروسة ..

ـ معلهش يا عـــزيزة . نشـــترى غيرها .. لقد سقطت وداستها العربة..

ـ يا خسارة . كانت جميلة وصوتها حلو .. لازم أشترى غيرها ..

ـ طبعـــا يا عـــزيزة .. سنشترى غيرها أحسن منهـــا .. ولكن فى يوم آخر .. فى يوم آخر يا عزيزة ..

ـ ضرورى قبل أن يرسلوا البنت .. لابد أن تكون العروسة عندى يا نوال .. ولا تنسى أن تمرى عليهم غدا ..

ـ ان شاء الله ..

وسارتا فى بطء .. داخل احـــدى الحارات . يرتفع خلفهما صياح الأطفال يملأ الميدان .. عاد أزيز الطـائرات . السماء معتمة .. الرياح سريعة باردة . قطرات المطر تتساقط ترتطم بكل شىء فى الميدان .

« طه حواس »